الموحدون الدروز في سوريّة من 1920 إلى 2020

علاقة عقيدتهم بولائهم

بحث في الأنثربولوجيا السياسية

شوكت غرزالدين[1]

ملخص البحث

لا يطمح هذا البحث إلى مناقشة مضمون عقيدة الموحدين الدروز، ولا إلى مجرد السرد التاريخي عنهم، إلّا بما يسهم في تعريف السوريين بعضهم إلى بعض. وإنما سيبحث في علاقة رابطيّ العقيدة والقربى الأنثربولوجيّين السياسيّين، مع كلٍّ من المجتمع والدولة في سوريّة خلال قرن؛ لاستحداث رابط يجمع السوريين من جديد. مع ملاحظة أنّ البحث يتناول الأغلبيّة لا الأفراد؛ ولذلك يضع نفسه في قلب التناقض الواقع بين «الجماعاتيّة»[2] Communitarianism وبين الفرد أو الفرديّة Individualism.

يستند هذا البحث إلى فرضيّة تقسم ولاء[3] الموحدين الدروز إلى ولائين:

أولهما هو ولاء أعضاء جماعة الموحدين الدروز إلى جماعتهم بالولادة. والذي يستند إلى كلٍّ من رابط القربى، بما يتضمنه من علاقات دم ونسب ومصاهرة، وإلى رابط العقيدة الروحيّ بما يتضمنه من عصبيّة وشعور بالتفوق.

وثانيهما هو ولاء الجماعة ككلٍّ إلى الدولة وإنما بالاختيار، وقد تجسد باختيار القوميّة العربيّة من جهة، والوطنيّة السوريّة[4] من جهة أخرى. ولكن مع المحافظة على خصوصيّتهم الأنثربولوجيّة بوصفهم جماعة دينيّة/مذهبيّة. فالأساس اللاهوتي هو الذي يؤطر وجود هذه الجماعة شأنهم في ذلك شأن المسلمين والمسيحيين وغيرهم.

ويهدف البحث إلى تبيان دور الرابط الروحي وروابط القربى في ولائهم أو تمردهم أو حيادهم، وذلك بواسطة دراسة سيرورة سلوكهم السياسيّ.

(1) شوكت غرزالدين: كاتب وباحث سوري.

(2) الجماعاتيّة مشتقة من جماعات، وهي آليّة لتعيين الولاء، ولكن بشكلٍ مسبق وغير اختياريّ، وبضغط من العقيدة والقربى بوصفهما رابطًا يربط بين أعضاء الجماعة بالولادة. وتقف الجماعاتيّة ضد الفرد أو الفرديّة وضد خيارهم الحرّ في الولاء النابع عن مبادئ. وما زالت الجماعاتيّة بالمعنى الأنثربولوجي عقبة أمام تعيين مواطنة سوريّة فرديّة يجب تفكيكها لتجاوزها.

(3) الولاء تكثيف سياسيّ للانتماء الاجتماعي وللهويّة الأنثربولوجيّة. وهو ولاءان: اختياري وطوعي نابع عن إرادة فرديّة حرّة، وإجباري نابع من حقوق المولد في بلد وضمن إثنيّة أو جماعة دينيّة ومذهبيّة.

(4) الوطنيّة السوريّة هي رابط جامع للسوريين على حدود سايكس بيكو استنادًا إلى جنسيتهم السوريّة لا إلى انتمائهم القومي أو الديني أو الطائفي.

فهل من علاقة بين العقيدة والولاء فعلًا؟ وما طبيعة هذه العلاقة إنْ وجدت؟ وكيف لعب رابطا القربى والعقيدة دورًا في ولائهم؟ سيتبين لنا أنّه ثمة علاقة بين عقيدتهم وبين ولائهم؛ لأنّ ولاء الموحدين الدروز في سوريّة لجماعتهم حقيقة أنثربولوجيّة، وذلك على الرغم من انعدم القيمة في كون الإنسان رجلًا أو امرأة، موحدًا درزيًّا أو موحدًا سنيًّا، عربيًّا أو كرديًّا، سوريًّا أو أميركيًّا؛ لأنّه ولد مصادفةً على هذا النحو أو ذاك. وهو ولاء يتغذى من رابطي العقيدة والقربى. نجده ينمو حينًا ويتراجع أحيانًا. ففي حالات الخطر المشترك يرتقي هذا الولاء إلى حد التضحية بالنفس كما رأينا في معركة «الشْبكي" ضد "داعش" 2018م. بينما في حالات الاسترخاء نجد هذا الولاء في أخف درجاته لدرجةٍ نرى فيها اقتتالًا داخليًا أو انقسامًا حادًا بين ممثلي العقيدة والعائلات.

فلماذا إذًا يكون الفرد فخورًا بانتمائه لعقيدته أو لعائلته على الرغم من أنّه لا فضل له بهذا الانتماء؟ لأنّه يشعر، سواء بوعي أو من دونه، أنّ هنالك نوعًا من الرابط الروحي الذي يجمعه مع أولئك الذين يشاركونه عقيدة معيّنة أو قرابة معيّنة. وأنّهم سيتحملون معًا عبء التزامات مشتركة ضد الأخطار المهددة لمصير الجماعة. وهذا ما يمكن تسميته «مسؤوليّة موروثة». إذ سيلبي الفرد، بوصفه عضوًا في جماعة، متطلبات الولاء لأهله لا لمبادئه المجردة. فإحساس الترابط مع القربى والطائفة هو ما يمنحهم الإحساس بما هم عليه؛ أي بذواتهم. ولهذا يشعر أفراد الموحدين الدروز بمسؤوليتهم عن أفعال أجدادهم، ويبررونها، ويفتخرون بها إلى درجة تقديسها، وكأنّهم أعضاء في الجماعة لا أفراد في مجتمع.

ويستمد هذا البحث أهميته من جدته أولًا؛ لأنّه لم ينشر بحث فيه من قبل على حدّ علمي المتواضع. وأغلب الباحثين بحثوا في مضمون عقيدة التوحيد للتعريف بها ومقارنتها بعقائدٍ أخرى، أو في سلوكهم السياسيّ، إنما مفصولًا عن العقيدة والقربى. وثانيًا، من محاولة وضع اليد على عقبة مهمة أمام نمو رابط الوطنيّة السوريّة (الجامعة السوريّة بتعبيرات يوسف سلامة)[5]؛ تلك العقبة التي تتمثل في حضور -إنْ لم نقل طغيان- الخصوصيّة المذهبيّة للجماعة على الرغم من عروبتها وإسلامها وسوريّتها بالأصل.

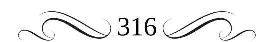
أمّا بالنسبة إلى منهج البحث، فإننا سنتحقق من فرضيّة البحث وسنجيب عن أسئلته بمنهجٍ وصفيّ بنائيّ يستخدم «الملاحظة بالمشاركة" المتبعة في الأنثربولوجيا، ثم تفكيك بعض الوثائق والمصادر التاريخيّة ومقارنتها لتبين حالات الولاء المتطورة.

وسنخلص إلى اقتراح "المواطنة الانتقاليّة" مفهوم إجرائيًّا قد يسهم في زحزحة العقبات الناتجة عن الأنثربولوجيا السياسيّة، لتطعيم مضمون الوطنيّة السوريّة بأفكار جماعاتيّة.

أولًا: مقدمة

"الموحدون الدروز" هو اسم علم. ويشير إلى جماعة أدانت بعقيدة التوحيد. فعن سؤال "من نحن؟" أجابوا بالإشارة إلى الشيء الذي له أكبر معنى بالنسبة إليهم. وغالبًا ما تُعرّف الجماعات بالرابط الأساس الذي يربط في

(5) يوسف سلامة، «الجامعة السوريّة»، مجلة قلمون، العدد الثاني، (2017)، ص14 وما بعدها. إذ قدّم فيها فكرة جامعة للسوريين تقوم على المواطنة المحايدة تجاه الأفراد والجماعات والإثنيات والطوائف، سماها «الجامعة السوريّة» كوعي مطابق للواقع قياسًا بالجامعة الإمبراطوريّة، القوميّة والإسلاميّة، ولهذا طرح حدود سايكس بيكو «الوطن الصغير» (ص19) مع وحدة الأراضي السوريّة (ص20)، ولكن مع الوطنية السوريّ (الدولة الوطنية) جاعلًا المكونات السوريّة صفةً لسوريّة: سوريون عرب، سوريون كرد، سوريون موحدون دروز...



ما بين أعضائها. ولذلك تميّز الموحدون الدروز بعقيدتهم، وعرفوا بها منذ بدء الدعوة إلى عقيدة التوحيد. فهذا يحيى بن سعيد الأنطاكي في كتابه «تاريخ الأنطاكي»[6]، الذي يبدأ في سنة938م وينتهي بسنة 1039م، يسميهم «الدرزيّة». حيث ورد في كتابه: "... قُتل فيها (القاهرة) جماعة من الدرزيّة". "وتزايد أمر الدرزيّة". "وأذاع بعض الدرزيّة...".

ومثل هذه التسمية تشير إلى قدمها أولًا، ونسبتها إلى الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي ولقبه نشتكين على الرغم من عدم تفضيلهم لها ثانيًا، كما تشير إلى ربطهم بالرابط المذهبي كتمييزٍ لهم ثالثًا. فيحيى بن سعيد كان معاصرًا للفترة التي تحدث عنها لأنه توفى عام 458هـ (1067م).

وللمقارنة بمسألة التسمية الجماعاتيّة هذه، نجد تسمية البدو على سيل المثال ترتبط بنشاطهم الإنتاجي المعتمد على الرعي وتربية المواشي وعدم الاستقرار، أما العرب فيتميزون بقوميتهم، والمسلمون والمسيحيون واليهود يتميزون بدينهم، ولكن السنّة والشيعة والموحدين الدروز والإسماعيليّة والموارنة والكاثوليك... فيتميزون بمذهبهم. فالموحدون الدروز هم عرب ومسلمون أساسًا. وربما كان بعضهم من الفرس (مثل حمزة بن علي وسلمان الفارسي) والتُرك (مثل نشتكين الدرزي من بخارى في أوزبكستان) والكُرد (مثل آل جنبلاط=جان بولاد)[7]، ولكنهم وعلى الرغم من أصولهم العرقيّة ومناطقهم الجغرافيّة، فإنهم لم يتميّزوا بقوميتهم ولا بأوطانهم، بل بمذهبهم.

إنّ مجرد اعتناق عقيدة التوحيد جعل منهم أقليّة في صراع وتنافس مع المذاهب الأخرى. فانقادوا إلى التقية من جهة، وإلى الولاء للدولة التي عاشوا فيها -إن هي راعت خصوصيتهم- من جهة ثانية. ولا ننسى أنّ ظهور دعوة التوحيد ارتبط بصراع أربع دول وقتها: الفاطميّة، العباسيّة، الحمدانيّة، البيزنطيّة.

وقد حثتهم عقيدتهم الروحيّة عن طريق «المجلس» أو دار العبادة، ورجال الدين عمومًا «مشايخ العقل الثلاثة"[8] خصوصًا، على بذل النفس رخيصة في سبيل العِرض والأرض و«الدين» (المذهب). وقادهم الفقر إلى طلب العلم والاغتراب الشيء الذي جعلهم على اطلاع واحتكاك بما يدور في العالم والعلم. وكانت "المضافة" مُعلِّمًا لهم لِما يدور فيها من أحاديث تفتخر بدور الجماعة والعائلة في التاريخ. ولعب إلغاء الطقوس الدينيّة عن غالبية أبناء وبنات الجماعة دورًا جعل منهم أقرب للحياة المدنيّة من الحياة الدينيّة، ولكن في مراحل الاسترخاء فحسب، ليعودوا إلى رابطي العقيدة والقربى وقت وقوع المخاطر المشتركة.

وبما أنّ العقيدة، أية عقيدة، تعتمد الإيمان لا البرهان، والإيمان يعتمد على الإرادة الحرّة الفرديّة، فإنّ إيمانهم ناتج عن كونهم يولدون على مذهب أسلافهم ولا يختارونه. ولذلك يجب التمييز بين من قبل دعوة التوحيد وأخذ الميثاق على نفسه وبين سلالتهم؛ وذلك لأنّ مَنْ آمن بالدعوة في البداية كان عن إردة حرّة، بينما ابنه وجد نفسه على هذه العقيدة بالولادة؛ ولذلك فهو ليس عن إرادة حرّة. فالموحد الدرزي هو من أبوين

(6) يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1(طرابلس-لبنان: جروس برس، 1990)، ص340. 344. 349. على التوالي.

(7) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، المجلد الثاني، ط1(بيروت: دار العلم لملاين، 1973)، ص631.

(8) ويمثلون رئاسة الهيئة الروحيّة. وهم ثلاثة في السويداء الآن يمثل كلّ منهم منطقة أو مقرن. وبدأت هذه الرئاسة الروحية في السويداء مع الأمير حمدان الحمدان 1803. وصفة العقل مستمدة من الاعتبارات العقليّة المبثوثة في عقيدة التوحيد. للاستزادة راجع: سلمان فلاح، «تاريخ الرئاسة الروحيّة ومشيخة العقل»، العمامة، http://www.al-amama.com/index.php?option=com_banners&task=click&bid=12

راجع أيضًا: https://youtu.be/COH71evzr7w?t=1025

موحدين درزيين، ولا يمكن لأحد أنْ يصبح موحدًا دزيّا باختياره هذا المذهب؛ لأنّ دعوة التوحيد قد أقفلت عام 1043م المواقق لعام 435هـ على يد بهاء الدين المقتنى[9]. وقد عُلِّقت الدعوة إلى عقيدة التوحيد ثلاث مرات[10].

ومن هنا حاول الموحدون الدروز إقامة الصلات بين معتقدهم الأنثربولوجيّ بالولادة، وخياراتهم السياسيّة القوميّة والوطنيّة. وهذا مما يضفي على هذا البحث في الأنثربولوجيا السياسيّة مشروعيته. فالموحدون الدروز هم كذلك بالولادة لا بالاختيار الحرّ. ففي "إسرائيل" مثلًا، يُصنف المواطنون إلى يهود وعرب ودروز وبدو. وكأن العرب والدروز والبدو ليسوا مسلمين! وكأن الدروز والبدو ليسوا عربًا! ومثل هذه التصنيفات، ناهيك عن أغراضها السياسيّة، ربما تستمد مشروعيتها من خصوصيّة الموحدين الدروز الروحيّة وخصوصيّة البدو الإنتاجيّة.

من هم الموحدون الدروز؟

الموحدون الدروز هم أتباع عقيدة التوحيد. وهي دعوة في مرحلة تاريخيّة سمح فيها باعتناق المذهب الذي أطلقه الحاكم بأمر الله الفاطمي. وهي عقيدة صوفيّة باطنيّة دعت إلى الله الواحد من جهة، ومن جهة أخرى إلى التوحيد بين التنزيل والتأويل لنقض الشريعة الظاهرة والشريعة الباطنة[11].

وتدعو دعوة التوحيد إلى تجلي اللاهوت في الناسوت (الصورة الناسوتيّة)[12]، وإلى التقمص؛ أي انتقال الأرواح بعد الموت إلى أجساد جديدة[13].

ولعقيدة التوحيد مصادر متنوعة[14]؛ فقد آلفت وجمعت بين الفلسفة اليونانيّة والعقائد الفارسيّة

(9) هو علي بن أحمد الطائي السموقي، أبو الحسن، بهاء الدين الملقب بالمقتنى، (979م-1043م). ولد بقرية سموقة من نواحي حلب. وهو من كبار أركان دعوة التوحيد وله عدد من «رسائل الحكمة» البالغة 111 رسالة. أرسل «سارة» ابنة أخيه لوأد الفتنة التي قام بها «سكين» أحد دعاته في وادي التيم 1035م. ولاه الحاكم أفاميا بعد إسقاط البيزطيين منها، وساهم في إسقاط أواخر عهد الدولة الحمدنيّة في حلب 406هـ. كما ساهم في خطف ولي عهد الحاكم عبد الرحيم بن إلياس عندما كان واليًا على دمشق لمحاكمته على يد الحاكم ثم أعاده الحاكم واليًا على دمشق حتى اختفى، فأسره علي الظاهر بمعيّة ست الملك أخت الحاكم وقتله وقيل إنّه انتحر. http://www.al-amama.com/

(10) المرة الأولى على يد الحاكم بأمر الله عام 409هـ بسبب خلاف نشتكين الدرزي مع حمزة بن علي على الإمامة. الثانية على يد بهاء الدين المقتنى بعد لغز احتجاب الحاكم بأمر الله أو قتله أو اختفائه 411هـ؛ لأنّ خليفة الحاكم علي الظاهر لإعزاز دين الله بطش بأتباع الدعوة حوالى سبع سنوات. والثالثة أيضًا على يد المقتنى فالزوزني والتميمي والقرشي والسامري ما عادوا للظهور منذ اختفاء الحاكم، وكان السبب عودة علي الظاهر للبطش بهم من جديد.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D8%B9%D988%%D8%A9_%D8%A7%D984%%D8%AA%D988%%D8%AD%D98%A%D8%AF_(%D8%AF%D8%B1%D988%%D8%B2)

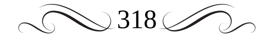
(11) بدوي، ص511.

(12) حامد بن سيرين، مصادر العقيدة الدرزيّة، ط1(ديار عقل-لبنان: دار لأجل المعرفة، 1985)، ص65.

(13) ولكن تقمص مع المحافظة على النوع فلا تتقمص روح الإنسان في جسد حيوان، وعلى الجنس فلا يتقمص الرجل بجسد امرأة أو العكس، وعلى الطائفة فالموحد الدرزي يتقمص موحدًا درزيًا آخر (نموت ونخلق عند بعضنا)، وعلى عدم تحديد حدّ أخير لأنّ التقمص ليس من باب إعطاء الفرصة للموحد حتى يطهر نفسه خلال سبعة أجيال ومن ثم تعود إلى باريها، وإنما هو بوابة إلى حياة جديدة بعد الموت وهكذا دواليك. فالتقمص هو التناسخ، وأول ما قالت به هي المدرسة الأورفيّة التي ينتمي لها فيثاغور. ثم اعتنقها سقرط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين. وهو حالة دورانيّة من الخلق والموت تشكل روح الحياة وتستند إلى تحديد فلسفي للنفس يقول: «النفس جوهر بسيط خالد لا ينقسم». موسوعة الفرق: طائفة الدروز، «المطلب الثاني: التناسخ والتقمص والحلول»، الدرر السنيّة،

https//:dorar.net/firq3347/

(14) ابن سيرين، ص42 وما بعدها.



الهرمسيّة الفرعونيّة والهنديّة والسنيّة والشيعيّة والنصيريّة والفاطميّة والاسماعيليّة؛ وبين شخصيّة الحاكم بأمر الله، أو الخليفة الفاطمي السادس في مصر، أو الإمام السادس عشر عند الاسماعيليّة[15]. وقد انتشرت الدعوة بحسب «رسائل الحكمة»[16] في وادي التيم وجبل الشيخ وحلب وأنطاكيا وصفد والشوف وعرقوب والمتن واليمن والهند والمغرب العربيّ آنذاك.

إذًا يتميّز الموحدون الدروز بعقيدة التوحيد عن سواهم من أصحاب العقائد. وقد ربطتهم هذه العقيدة برابطٍ قوي تحوّل إلى نوع من العصبيّة بالتدريج تحت مبدأ «حفظ الأخوان»[17].

ولكثرة المحن والويلات التي تعرضوا لها اضطر الموحدون الدروز إلى التقية والتستر والنزوح مما أدى إلى تقوية علاقات القربى والأخوّة في الدين المنتشرة في جبال بلاد الشام.

إن مسلك التوحيد قديم ويرجع إلى أخناتون. ولكن الدعوة إلى عقيدة التوحيد بدأت علنًا، في عام 1017م الموافق لعام 408هـ (سنة الكشف)[18]. وهو العام نفسه الذي سلّم فيه الحاكم بأمر الله الإمامة لحمزة بن علي الزوزني. ثم عجّل في هذا العام نشتكين الدرزي بجهره بالدعوة، ثم دعا لنفسه إمامًا منافسًا لحمزة بن علي، ونكث عن دعوة التوحيد ليقتله حمزة بن علي الزوزني في اليوم الأول من عام 410هـ (1019م)[19].

من هنا فإنّ الموحدين الدروز عمومًا في المئة سنة الماضية، هم سليلةُ الذين أخذوا على أنفسهم الميثاق للحاكم بأمر الله ثم لحمزة بن علي الزوزني ثم لبهاء الدين المقتنى منذ ألف عام تقريبًا. فالتوحيد مذهب إسلاميّ صوفي باطنيّ في بلاد الشام حافظ على نفسه على الرغم من المحن التي تعرض لها.

---

(15) بدوي، ص573.

(16) هي النصوص المقدّسة عند الموحدين الدروز، كتبها بعض الدعاة لعقيدة التوحيد وكانت سريّة ثم انتشرت. يغلب عليها طابع علم الكلام (الفرق الكلاميّة) في مساجلاتها وبراهينها.

(17) وتعني الأخوّة في الدين، لا الأخوّة في الإنسانيّة؛ أي، الترابط الوثيق بين الموحدين ليصونوا ويناصروا بعضهم. وهي ثاني الخصال التوحيديّة من أصل سبعة بحسب رسالة «ميثاق النساء» وبحسب بدوي، ص511. أولها وأعظمها: سدق اللسان، وثانيها: حفظ الإخوان، وترك ما كنتم عليه وتعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، ثم البراءة من الأبالسة والطغيان، ثم التوحيد لمولانا جل ذكره في كل عصر وزمان ودهر وأوان، ثم الرضى بفعله كيف ما كان، ثم التسليم لأمره في السر والحدثان. فيجب على سائر الموحدين والموحدات حفظ هذه السبع خصال والعمل بها وسترها عمن لم يكن من أهلها.

(18) مرت عقيد التوحيد بأدوار ستر وبأدوار كشف. فكانت دعوة التوحيد سريّة تعتمد النذر أو المبشرين، وانتقلت في هذه السنة إلى دعو علنيّة تعتمد الدعاة وتأخذ على الملبين لها «ميثاق ولي الزمان» وهو: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد. أقر فلان بن فلان، إقرارًا أوجبه على نفسه، وأشهد به على روحه، في صحة من عقله وبدنه، وجواز أمره، طائعًا غير مكره ولا مجبر. أنّه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات، كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف شيئًا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة هي العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحدًا مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره. ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه، أو أشار به إلى غيره، أو خالف شيئًا من أوامره. كان بريئا من الباري المعبود، واحترم الإفادة من جميع الحدود، واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره. ومن أقر أن ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين.

كتب في شهر كذ وكذا من سنة كذا وكذا من سنين عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد، هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده».

(19) حسب هانز فير نقله بدوي، ص553. وانظر أيضًا:

https//:www.marefa.org%/D8%A7%D984%%D8%B5%D981%%D8%AD%D8%A9%_D8%A7%D984%%D8%B1%D8%A6%D98%A%D8%B3%D98%A%D8%A9

حول تعدادهم ومناطق وجودهم في سوريّة

يتوزع الموحدون الدروز حاليًّا ما بين جبال سوريّة ولبنان وفلسطين المحتلة والجولان المحتل والأردن بنسبٍ متفاوتة. وتُشير التقديرات إلى أنّ سوريّة تضم النسبة الكبرى منهم؛ أي بين 40 بالمئة إلى 50 بالمئة من مجمل عددهم البالغ حوالي 1.5 مليون في جميع أنحاء العالم. ففي إحصاء 1947 بلغ عددهم في سوريّة 96641 من أصل 3043310. أمّا في لبنان بإحصاء 1944 بلغوا 71711 من أصل 1253992، بينما في إحصاء 1956 بلغوا في لبنان 88100 من أصل 1412000.

ووفقًا لمعهد واشنطن[20]، واعتبارًا من عام 2010، وهو العام الأخير الذي يتوافر فيه أرقام إحصاء موثوق للسوريين، وصلت أعدادهم في سوريّة إلى حوالى 700.000 نسمة. أي ما يعادل 3 في المئة أو 3.2 في المئة تقريبًا من إجمالي عدد السكان في سوريّة.

ففي محافظة السويداء التي ما زالت غالبيتهم تعيش فيها، بلغ عدد السكان الموجودين فعليًّا فيها آنذاك 375 ألف نسمة، بحسب معهد واشنطن، من أصل 476 ألفًا بحسب مركز الإحصاء 90- في المئة منهم موحدون دروز، و7 في المئة مسيحيون، و3 في المئة من السنّة. بينما كان عددهم في السويداء عام 1925م 52064 نفسًا منهم 44344 من الموحدين الدروز، و4654 من المسيحيين، و725 من السنّة، و2341 من «الغرباء»[21]. ويتصف موقف السويداء إجمالًا بالحياد الإيجابي من الثورة السوريّة 2011 كامتناع حوالى 40 ألفًا من شبابها عن خدمة الجيش بحسب أغلب الناشطين، والمشاركة في أعمال الإغاثة واستقبال النازحين من هول الحرب بشكلٍ كبيرٍ لا إحصاء دقيق لهم، ولكن ربما ينوف على 250.000 بحسب ناشطي الإغاثة من درعا والغوطة وحمص. ويحدّ السويداء من الشمال ريف دمشق ومن الغرب محافظة درعا ومن الجنوب والشرق المملكة الأردنيّة وذات المساحة[22] 5550 كيلو مترًا مربعًا وكانت عام 1925 7920 كيلو مترًا[23]. وتقلص المساحة ارتبط بتقسيم سايكس/بيكو بعد نزع منطقة الأزرق من السويداء، وبإتباع منطقة الزلف والمارّة بريف دمشق من قبل السلطات المحليّة في دمشق في الستينيات من القرن الماضي.

إنّ استقرار الموحدون الدروز في السويداء حديث بالمقارنة مع وجودهم في إدلب وجبل الشيخ، أو ووادي التيم وجبل لبنان، أو بفلسطين بين صفد وعكا. وربما بدأ التعرف على منطقة السويداء أيام ترميم قلعة صلخد على يد فخر الدين المعني الثاني 1625م[24]. وفي عام 1685م استقر الأمير علم الدين بن معن فيها، ثم وكّل بعد عودته إلى لبنان أحد الأمراء الحمدانيين واسمه حمدان الحمدان[25]. وفي عام 1711م في إثر موقعة «عين دارة” في لبنان بين اليمانيين والقيسيين، لجأ إلى السويداء أغلبهم. وأيضًا نزحوا إلى السويداء من حلب أو الجبل الأعلى

(20) فيبرُس بالونش، «الدروز والرئيس الأسد: حلفاء استراتيجيون»، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، (2016)،

https//:www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/the-druze-and-assad-strategic-bedfellows

(21) حنا أبي راشد، جبل الدروز، ط1، (القاهرة: مكتبة زيدان العموميّة، 1925)، ص9.

(22) المكتب المركزي للإحصاء، (2010)، https://web.archive.org/web/20070610054048im_/http://www.cbssyr.org/images/artitle1.gif

(23) أبي راشد، ص8.

(24) بهيج عثمان، شفيق جحا، منير البعلبكي، المصور في التاريخ: قلاع فخر الدين، ج7، ط6، (بيروت: دار العلم للملايين، 1999)، ص57-59.

(25) شبلي العيسمي، داوود نمر، حمود الشوفي، محافظة السويداء، ط1، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1962)، ص17.



(جبل السمّاق) ومن صفد في فسطين أيام أحمد باشا الجزار[26].

أمّا في محافظة ريف دمشق فهناك 250 ألفًا منهم يقيمون في ضواحيها مثل جرمانا، حي التضامن في مخيم فلسطين، صحنايا، الأشرفيّة، دير علي، وجديدة عرطوز. وكان موقفهم عمومًا مواليًا للنظام في التسع سنوات الأخيرة.

وفي محافظة القنيطرة يتوزع 30-40 ألفًا على الجانب الشرقي من جبل الشيخ في حضر ووادي العجم وحينة وعين الشعرا وحرفا وعرنا وريمي وبقعسم وخربة السودا ومغر المير (المغر) ورخلة والجديدة وعيسم والمقروصة وقلعة جندل. أمّا موقفهم فكان مواليًا للنظام أيضًا. وفي 2017/11/3 تعرضت حضر في التلول الحمر إلى هجوم من جبهة النصرة سمّوه «معركة كسر القيود عن الحرمون» جعل من تضامن الموحدين الدروز في فلسطين والجولان ولبنان في أعلى حالاته[27].

وفي محافظة إدلب يوجد حوالى 25 ألفًا من الموحدون الدروز في 18 قرية في جبل السمّاق (الجبل الأعلى) الذي يبعد حوالى 20 كم عن مدينة إدلب إلى الشمال الغربي الذي يحاذي مناطق حارم وكفرتخاريم وقورقونيا. وهذه القرى هي: بنانبل، قلب لوزة، بشندلنتي، كفركيلا، عبريتا، جدعين، بشندلايا، كفرمارس، تلثيثا، حلله، كوكو، الدوير، عرشين، كفرربني، وَفيّ السهل، كفتين، بيرة كفتين، معارة الإخوان. وقفوا مع الثورة ضد الفرنسين أيام ابراهيم هنانو. وكان موقفهم إيجابي من ثورة السوريين ضد الاستبداد، ولكنه اقتصر على استقبال النازحين؛ الذين بلغ عددهم حوالى 17 ألفًا، وحماية الثوار، وتكذيب رواية بشار الجعفري عن السلاح الكيماوي[28] في مجلس الأمن، عندما اتهم أهالي قلب لوزة بتخزين شحنة كيماويّة قادمة من أدلب حسب زعمه. ولكن فرضت عليهم جبهة النصرة على خلفيّة مذهبيّة التقية وفجّرت (المجالس) أو دور العبادة. وكان لقتل 23 مدنيًّا في قلب لوزة في 10 حزيران/يونيو 2015م أسوأ وقع في نفوس الجميع، فقد تبين أن المسؤول هو أحد أمراء جبهة النصرة مع مجموعته. وقد اعتدوا على المدنيين اعتداءً لا يجيزه شرع، ولا يقره قانون، ولا يعترف به تقليد سوريّ ولا تقتضيه مقتضيات الثورة التي نادى السوريون بها بالحرية والكرامة والشعب الواحد، إلى حدِّ إدانة بعض الفصائل الكبرى «السنيّة» له[29]. فجاءت حادثة قلب لوزة مناقضة تمام المناقضة لشعارات الثورة، فلا غرو إذا نقم الموحدون الدروز من مرتكبي هذه المجزرة وتأثيرها في سيرورة الثورة عمومًا.

وفي الجولان المحتل أربع قرى تضم حوالى 30 ألفًا يتوزعون في مجدل شمس -التي تضم نصفهم تقريبًا- وتضم قرى بقعاثا ومسعدة وعين قنيا النصف الآخر. كانوا قد رفضوا الهوية الإسرائيليّة في ثمانينيات القرن العشرين. وناصروا النظام في ثورته المضادة للثورة السوريّة 2011.

تعيش أغلبية الموحدين الدوز على الزراعة والوظائف الحكوميّة والاغتراب. وقد غيّرت الحرب على مدار تسعة أعوام التوزيع السكاني لهم بسبب نزوحهم من إدلب والقنيطرة وريف دمشق إلى السويداء. ولا سيّما التغيّر في السويداء التي استقبلت -إضافة إلى الموحدين الدروز- نازحين سنّة عندما لجأ كثير من أسرها خوفًا من

(26) المرجع نفسه، ص17-18.

(27) https://youtu.be/PK2UYEFmmHM?t=108

(28) https//:youtu.be/SD07iOzxxKA?t191=

(29) https//:arabi21.com/Content/Upload/Editor/Image1_620151223711.png



النظام وداعش والنصرة. في سوريّة الآن لا يعتمد النشاط الإنتاجي لأعضاء الجماعة على العقيدة والقربى، بل يعتمد على الكفاح الفردي والكفاءة الفرديّة على الرغم من استمرار التوريث للملكيّة ورؤوس الأموال. ولكن ما زالت مسألة المكانة والزعامة تعتمد على علاقات الدم والنسب والقربى. وما زال رابط العصبيّة يعتمد على مضمون عقيدة التوحيد.

ثانيًا: تعريف أنثربولوجي للموحدين الدروز

على مدار ألف عام ارتبط الموحد ون الدروز ببعضهم بواسط رابطي العقيدة والقربى. وتحوّلوا تدريجيًّا إلى "جماعة مُتخيّلة" بحسب مصطلحات بندكت أندرسون[30]. فهم جماعة بفضل الأخوّة في الدين وسلسلة القربى مهما يكن من عدم المساواة والاستغلال الفعليين السائدين. ومثل هذه الأخوة وهذه السلسلة هما من جعلتهم يَقتلون ويُقتلون في سبيل تخيّلاتها المحدّدة. وهي جماعة مُتخيّلة لأنّها تتخيل حدودًا جغرافية لها، وسيادة على حدودها وأعضائها. وبهذا تشكّلَ رابط توحيدي درزي يستحوذ على ولاء أعضاء هذه الجماعة المتخيّلة. وارتبط أعضاء الجماعة بعضهم ببعض بواسطة كلٍّ من عقيدة التوحيد كرابط روحيّ يحث على «حفظ الأخوان" بما يتضمنه من عصبيّة، ونظام القربى الذي يدعم ابن العم على الغريب بما يتضمنه من حميّة وعلاقات عائليّة ونسب ودم ومصاهرة. وقد حاولت هذه الجماعة المحافظة على خصوصيتها الأنثربولوجيّة في مواقفها وتحالفاتها بقدر المستطاع. وتجدر ملاحظة أنّ الرابطين -العقيدة والقربى- رابطان أنثربولوجيّان يتحصلان بالولادة لا بالاختيار. فليس ثمة رموز لهذه الجماعة تفوق أضرحة الأولياء (المُزر) وراية «الخمس حدود"[31] وعلاقات القربى و«مشاهد الشهداء»[32] وذكرى الأجداد والآباء.

كما يربطهم رابطان بالاختيار السياسيّ هما الربط لقومي العربي والرابط الوطني السوري مع التشديد على خصوصيتهم العربيّة والإسلاميّة كجماعة دينيّة/سياسيّة ضمن هذين الرابطين أيضًا. وما انتشار «المشاهد» و المجسمات للشهداء القومين والوطنيين في مختلف بلدات السويداء -مما لا نجد مثيلًا له في المحافظات السوريّة كافة- إلّا تأكيد على خصوصيّتهم العقيديّة والقرابيّة.

وعلى مثل هذه الروابط يقوم ولاؤهم أو ثورتهم أو حيادهم. فيعقدون التحالفات والصداقات مع جيرانهم (الحوارنة والبدو وريف دمشق) ومع الحكومات، أو يناصبونها العداء أو الحياد بأقل تقدير. وتكمن خصوصيتهم في تحويل رابطي العقيدة والقربى إلى رابطٍ للجماعة السياسيّة. وعلى الرغم من كونهم أقليّة إلّا أنّهم من دون عقدة الأقليّات التي تطلب الحماية والتقسيم. إنّ الولاء الأوليّ للموحدين الدروز هو الولاء للعقيدة وللقرابة (للجماعة). أمّا الولاء الثانوي فهو للقوميّة العربيّة وللوطنيّة السوريّة ولكنهما مطعمتين بالنكهة الخصوصيّة للولاء الجماعاتي. وقد تجسد دور كلٍّ من عقيدة التوحيد وعلاقات القربى في مشايخ العقل ومشايخ الدين وزعماء

(30) بندكت أندرسون، الجماعات المُتخيّلة، ترجمة ثائر ديب، ط1(بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، 2009)، ص52.

(31) راية من خمسة ألوان ترمز إلى خسة حدود وهي بالترتيب من الأعلى إلى الأسفل: الأخضر (العقل/هادي المستجيبين، حمزة بن علي)، الأحمر (النفس/التميمي، أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد)، الأصفر (الكلمة/ القرشي، أبو عبدالله محمد بن وهب) الأزرق (السابق/السامري، أبو الخير بن عبد الوهاب)، الأبيض (التالي/ المقتنى، بهاء الدين السموقي). https://dorar.net/firq/3349

(32) المشهد هو نصب تذكاري بمجسمات مختلفة يقع في مداخل المدن والبلدات للشهيد إذ يضعون رفاته به. ومن الممكن أنْ يكون مشهد (مجسم) طائرة إذا كان الشهيد طيارًا أو دبابة إذا كان رامي دبابة أو سائقها وقس على ذلك.

العائلات وفي كون العقيدة والقربى شكلّا الخيط الناظم للجماعة والرابط بين أعضائها. ولهذا كان البحث في الأنثربووجيا السياسيّة للتفريق بين الولاء الجماعاتيّ وبين الولاء الفرديّ.

على سبيل المثال لاحظوا كيف يعمل نظام القربى:

اختلف سلطان الأطرش مع ابن عمه الأمير سليم الأطرش عام 1918م؛ لمناصرة سلطان للثورة العربيّة بقيادة الشريف حسين، ولمناصرة سليم للدولة العثمانيّة. وهذا الخلاف موثق بالرسالة التي أرسلها سليم من قرية عرى، وردّ عليها سلطان برسالة من قرية القريَا.

ولكن بعد هذا الخلاف اجتمعا. وفي هذا يقول أبي راشد[33]: "عند وصول الأمير فيصل، إلى دمشق في 10 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1918 اجتمع حزب سلطان باشا وحزب الأمير سليم، في فندق واحد، متصافحين متحدين، بعد أنْ كانوا منقسمين إلى حزبين، حزب عربي، وحزب تركي والفضل بهذا راجع لاتحادهم المتين الذي لا يمكن لقوةٍ أنْ تفصم عراه. وفي الاجتماع، تقرر زيارة الأمير فيصل، وأنْ يتقدم الجميع بالتشريفات الأمير سليم، بصفته شيخ مشايخ الجبل. فتأمل!!!؟".

أمّا بالنسبة إلى دور العقيدة فنجدها جليّة في المهمة التي دعت إليها حركة «مشايخ الكرامة»، وهي حماية «الأرض والعِرض والدين»[34]. وخير مثال على دور رابط العقيدة هو "الفزعة" في هبّتهم منفردين، من دون مساعدة النظام أو روسيا أو إيران أو حزب الله، للتصدي لـ"داعش" عندما هاجمت السويداء 2018م. ولكن، إذ يرى الباحثان يوسف فخر الدين وهمام الخطيب أنّ هذه المهمة طبقت على الأرض في معركتي «الحقف» و«شقا» وقبلهما في معركة «داما»، وأنّها لاقت استحسانًا عند الجمهور العريض من الموحدين الدروز؛ لأنّها طرحت الشيء المشترك بينهم. فيجب أنْ نذكر أنّ هذه المعارك المشار إليها تم خوضها بقيادة قوات النظام وتحت رايته التي ما زالت موضع خلاف. ثم أنّ الشيء المشترك هو مع السوريين لا مع الموحدين الدروز فحسب. وأظن أنّ مثل هذه «المحليّة» هي السبب الأساسي -علاوة على بطش النظام- في تراجع هذه الحركة وانكماشها. فوحيد البلعوس مثلًا رفض مشاركة الجيش الحرّ في مطار الثعلة، ورفض رفع علم الجيش الحر. بينما سلطان الأطرش وحمد البربور رفعا علم الثورة العربيّة فوق داريهما مع البيرق المحلي للقريّا وأم الرمّان. ولكن البلعوس رفع علم النظام في البداية ثم رفع علم «الخمس حدود» تثميلًا لطائفة الموحدين الدروز.

يلخص سلطان الأطرش خصوصيّة الموحدين الدروز بقوله: «وعليه إذا أرادت فرنسا أنْ ترفع راية السلام على هذه الربوع فأنا أول من يخضع للحق بشرط أنْ تحفظ عِرضنا وعقائدنا واستقلالنا»[35]. ويفسر الرابط الروحي كيف أنّ رسالة إلى الهند من بهاء الدين المقتي منذ ألف عام إلى ابن سومر راجبال[36] جعلت من موحديها يجمعون التبرعات إلى موحدي السويداء في هذه المرحلة؟! وإذا كنا نتفهم مساعدات موحدي لبنان أو فلسطين أو الجولان أو الأردن للروابط الكثيرة بينهم، فإنّ غياب هذه الروابط مع موحدي الهند يجعنا نقدر دور الرابط

(33) أبي راشد، مرجع سابق، ص100-101.

(34) يوسف فخر الدين، همام الخطيب، «التوظيف في الصراعات الضديّة: سلطة الأسد و«تنظيم الدولة الإسلاميّة» في محافظة السويداء»، مركز دراسات الجمهوريّة، (2020)، ص29.

(35) أبي راشد، ص128.

(36) ففي سنة 427 هـ 1036 م أقام بهاء الدين المقتنى في الرملة حيث وفد عليه موفد الأمير جاتا بن صومار راجا بال وسلّمه كتابا من الأمير الهندي، والمقتنى كان قد وجّه الرسالة السادسة من المجموعة الثالثة إلى الموحدين في الهند وسماها «رسالة الهندي".



الروحي حق تقديره.

لا نلوم أبناء وبنات طائفة الموحدين الدروز إنْ قلنا أنّ الجميع عاد إلى مضارب طائفته وأقاربه. ولكننا نريد أنْ ندلِّل على أنّ مثل هذا الاحتماء المبرر يحمل في طياته علاقة طرديّة؛ بمعنى أنّه كلما زاد تراجع الدولة زاد معه تراجع الناس إلى طوائفهم وأقربائهم. وعلاقة عكسيّة؛ أي أنّه كلما ضعفت الدولة استقوى نظام العقيدة ونظام القربى أو استقوى الرابط العقيدي والعائلي. فعند المدّ الوطني والسياق الدولي المناسب تتراجع الولاءات الما قبل وطنيّة. وعند المد القومي والسياق الدولي المناسب تتراجع الولاءات الما قبل قوميّة. ولذلك تعمل سلطة الاستبداد والفساد، والاستعمار والتدخلات الدوليّة على إثارة الفتن العقائديّة والعائليّة لتضمن عدم تقدم مكوناتها الاجتماعيّة في التعاون مع بعضهم لإنتاج نظام حكم يجعلهم متساوين فيما بينهم. ولذلك تقوم هذه السلطات بالتقرب من مشايخ العقل ومن زعماء العائلات.

ولامتداد الموحدون الدروز في بلاد الشام وبعض دول الاغتراب، ولعمق الرابط الروحي جعل من قرارهم في سوريّة ليس محليّا صرفًا ناتجًا عن اتفاق وتشاور ومصلحة عامة، وإنما يخالطه تدخلات دوليّة يقودها طريف وعلي معدي في فلسطين وجنبلاط وأرسلان ووهاب في لبنان. فبتدخلهم هذا في موحدين سوريّة يجعلون الحضور الخارجي فعلًا مذررًا لهم ومعيقًا لحيادهم الإيجابي. وهذا يجد تجسيدًا له في التبرعات الماليّة الكبيرة التي وصلت إلى المحافظة طوال الأعوام التسعة المنصرمة.

وعلى الرغم من أن خلافات الموحدون الدروز في السويداء مع جيرانهم الحوارنة أو البدو كثيرة إلّا أنّها لم تكن يومًا خلافات طائفيّة، بل خلافات قبليّة وعشائريّة على الأرض والزعامة والمكانة والماء والكلأ والرعي مثلما حصل عام 2000 بينهم وبين البدو. والدليل على هذا أنّ لا حرب حصلت مع المسيحيين أو السنّة في السويداء. فالعداء «لم يكن طائفيًا بل قبليًا واقتصاديًا» بحسب الرحالة برِ كهارت[37] الذي زار المنطقة عام 1810م.

وهذا بخلاف الصراع مع أديب الشيشكلي الذي كان سياسيًا بالنسبة إلى السويداء، ولكنه طائفيًا بالنسبة إلى الشيشكلي. فسلطان الأطرش يرفض قتال الجيش السوي 1954 بحجة أنّهم «أبنائنا». بينما الشيشكلي يقول السويداء "رأس الأفعى" ويلفق التهم على معتقدهم وخيانتهم كطائفة لأنّه توقع تمرد جبل الدروز عليه. فسلطان الأطرش لم يهنئه بانقلابه لأنّ ميوله هاشميّة، كما عارض منصور بن سلطان الأطرش بسم حزب البعث سياسة الشيشكلي فقام باعتقاله[38]؛ ولذلك «حشد حملة قوامها عشرة آلاف مقاتل مزودين بأحدث الأسلحة الآليّة والسريعة يساندها سلاح الجو وأمر باعتقال سلطان الأطرش وغيره من زعماء الجبل» [39].

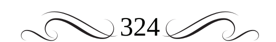
بينما يرى منير الخطيب أنّه صراع سياسيّ عى الرغم من محاولات الشيشكلي إلباسه ثوبًا طائفيًا: «حتى أن أديب الشيشكلي» «العلماني المتطرف»، عندما جرّد حملة عسكرية لتطويع جبل العرب، لم يفعل ذلك كون الجبل معقلًا للدروز، بل بوصفه رأس الحركة السياسية المعارضة لحكمه، حيث كان يردد باستمرار: «إن أعدائي كالأفعى، ذيلها في حلب وبطنها في حمص ورأسها في الجبل، فإذا قطع الرأس ماتت الأفعى». هذا اعتراف من رئيس السلطة آنذاك، بالدور الوازن لأهل الجبل، الذي أخذوه بموافقة ورضا القوم الأكثري. وكان هدف

---

(37) العيسمي، مرجع سابق، ص21.

(38) باترِك سِل، الصراع على سوريّة، ترجمة، ط1(دمشق: دار طلاس، 1986)، ص178 وما بعدها.

(39) فضل الله أبو منصور، أعاصير دمشق، كتاب إلكتروني من مدونة أبو عبدو البغل، ص110-111.



حملة الشيشكلي تقليص هذا الدور بصفته السياسية وليس بصفته المذهبية»[40].

ثالثًا: دور الولاء الجماعاتي للموحدين الدوز في سوريّة خلال قرن

عام 1920م وجد السوريون -بمختلف طوائفهم وقومياتهم- أنفسهم أمام سورية جديدة تختلف حدودها الجغرافيّة بشكلٍ كبير عمّا عرفوه سابقًا. ففي 8/آذار/مارس/1920م استقلت سوريّة عن العثمانيين؛ أي تأسست سوريّة كدولة على حدود سايكس/بيكو فعليًا. أمّا نظريًّا فكانت قد تأسست على الولايات العثمانيّة أو ما يسمى بلاد الشام. وفي 24/تموز/يوليو/ 1920 استشهد يوسف العظمة وزير الحربيّة في حكومة الملك فيصل في معركة ميسلون ضد الانتداب الفرنسي بقيادة الجنرال غورو آنذاك. وفي 28/تموز/يوليو/1920 حلّت فرنسا المملكة العربيّة السوريّة. ولقد ارتبطت أحداث عشرينيات القرن العشرين بأحداث كبرى أثرت في سوريّة. مثل انهيار الدولة العثمانيّة، وبروز الثورة الاشتراكيّة، وتشجيع مبادئ ولسون لاستقلال الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، وهيمنة "الأمن البريطاني" (Pax Britannic)[41].

دخل الموحدون الدروز عشرينيات القرن الماضي على أرضيّتين: مقاومة العثمانيين ومناصرة العروبة. فقد شارك سلطان الأطرش ورفاقه في الثورة العربيّة بقيادة الشريف حسين لتحرير سوريّة من المحتل العثماني وتحقيق الاستقلال المنشود[42] ورفع العلم العربي على دمشق قبل وصول الإنكليز[43]. وقد كان للموحدين معارك عدة سابقة ضد العثمانيين الذين أعدموا ذوقان الأطرش، والد سلطان، ويحيى عامر عام 1911. وقد تصدوا لحملة إبراهيم بن محمد علي في اللجاة عام 1836 بسبب جمع السلاح والخدمة الإلزامية في الجيش وجباية الضرائب[44]. وهذا عزّز مكانتهم وحدد دورهم في بناء الوطنيّة السوريّة بمقارعة الاستعمار في بدايات القرن.

لاقى الموحدون الدروز العروبة في ثلاث محطات هي الثورة العربية وقضية فلسطين ومشروع الوحدة العربيّة. ولاقوا الوطنيّة السوريّة في استقلال سوريّة التام عن الفرنسيين وقبولهم الولاء لها. ولكنهم أضافوا خصوصيتهم بوصفهم جماعة أنثربولوجيّة. فأكدوا في السويداء نديّتهم تجاه العرب والفرنسيين والإنكليز لأنّهم وعوا مكانتهم الاستراتيجيّة. كما نجد في بعض بنود الاتفاق بين الموحدين الدروز والملك فيصل عن طريق نسيب البكري الثوري من القابون في ريف دمشق:

«أولًا- استقلال جبل الدروز سياسيًّا، وإداريًّا مع حفظ جميع التقاليد والعادات المرعيّة بين العشائر.

ثانيًا- إيجاد العلاقات الوديّة، والمحالفة الثلاثيّة، بين الحجاز، وسوريّة، وجبل الدروز عى نقاط ثلاث:

1 - العرب تساعد الدروز، والدروز تساعد العرب، عند اللزوم.

---

(40) منير الخطيب، «القوم الأكثري والأقليّلت (الدروز نموذجا)»، جريدة الحياة، 16 كانون الأول، (2011).

(41) خلدون النقيب، الدولة التسلطيّة، ط1(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1991)، ص71. ويعني هيمنة استراتيجيّة سياسيّة واقتصاديّة في بلدان المشرق العربي؛ أي عهد بريطانيا العظمى في سوريّة وفلسطين والعراق والأردن والحجاز ومصر أسوة بـ«الأمن القومي الأميركي» فيما بعد.

(42) أبي راشد، ص97.

(43) العيسمي، ص51.

(44) أبي راشد، ص47-48.



2- لا سلطة فعليّة، أو عسكريّة، لحكومة من الحكومتين، السوريّة والحجازيّة على جبل الدروز.

3- إنّ الدروز تعتبر الأمير فيصل أميرًا على سوريّة ولكنها لا تعتبره أميرًا على الجبل، إلّا من الوجهة الأدبيّة، والعلاقات الوديّة والتشريفيّة»[45].

لاحظوا التشديد على خصوصيتهم، والنديّة تجاه الحجازيين والسوريين والتمايز تجاه العرب. وجدير بالذكر أنّ القوميّة العربيّة لم تكن متبلورة آنذاك، ولا الدولة السوريّة التي كانت جزء من فلسطين والأردن ولبنان.

في 20 ديسمبر 1921 عقد الموحدون الدروز في السويداء مؤتمرًا عامًا. وأهم ما ارتأوا فيه:

"1- حكومة جبل الدروز، هي حكومة شوريّة، ومستقلة استقلالًا داخليًا تامًا. -2 تقبل حكومة الجبل الانتداب الفرنساوي بشكلٍ لا يمس استقلالها... -8 لا يحق للحكومة المنتدبة المداخلة بأمور الجبل ولا تجنيد أهالي حبل حوران، ولا تنزع السلاح منهم... "[46]. وقد حصل جبلهم على استقلال إداري من الجنرال غورو. وفي 6 مايو/أيار 1921. وانتُخبَ نواب المجلس النيابي في السويداء[47]. وقد عزّز من هذه المنزلة الاستراتيجيّة دورهم في الثورة السوريّة الكبرى بقيادة سلطان الأطرش ضد الاحتلال الفرنسيّ.

وقد عزى الباحثان، إياد العبدالله وعبدالله أمين حلاق، أسباب المعارك الكثيرة التي خاضها الموحدون الدروز في السويداء إلى عاملين اثنين[48]:

أولهما هو «لم تكن جميع أراضي الجبل (السويداء) التي نزل فيها الدروز الوافدون بلا أصحاب، بل كان هنك بعض المسيحيين، وعشائر بدويّة، كما كان بعضها مملوكًا أو مسكونًا من قبل الحوارنة (سهل حوران أو درعا)».

وثانيهما هو «النزوع الاستقلاليّ الذي تميز به دروز جبل حوران، وعدم رضوخهم بسهولة لأي سلطة خارجيّة، ما أدخلهم في حروب وانتفاضات ضد العثمانيين وابرهيم بن محمد علي باشا، ثم الفرنسيين». ويجب الّا نفهم عبارة «النزوع الاستقلاليّ» الواردة في الاقتباس بمعنى النزوع الانفصاليّ، وإنما بمعنى التشبث بخصوصيّة الجماعة؛ لأنّها رفضت دولة الدروز الفرنسيّة وأصرّت على الارتباط «بأمنا سوريّة» حسب تعبيرات سلطان الأطرش في البداية وفهد البلعوس زعيم «حركة رجال الكرامة» مؤخرًا.

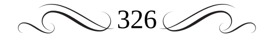
كانت إحدى المشكلات التي امتاز بها القرن المنصرم في سوريّة هي غياب الاندماج الوطنيّ بين أفراده ومكوناته وجماعاته؛ أي إنّه امتاز بغياب المواطنة التي تساوي بين حقوق الأفراد جميعًا في البلد الواحد (وهل اختلف الأمر الآن؟!). ولهذا غابت (الفرديّة وحقوق الأفراد المتساوية) بينما استمرت الجماعاتيّة بفضل مهادنة السلطات لزعمائها الروحيين والسياسيين. ولهذا غاب الأفراد والمواطنين، وكثر التفريق بين الجماعات المذهبيّة كالسنّة والعلويين والموحدين الدروز... وكذلك بين الفئات الاجتماعيّة؛ فالذكور غير الإناث، والفقراء يختلفون عن الأغنياء، والمتدينون أعلى من غيرهم، والريفيون أدنى من المدنيين وهكذا... الشيء الذي خلق العقبات أمام

(45) المرجع نفسه، ص54-55.

(46) المرجع نفسه، ص131.

(47) أبي راشد، ص136.

(48) إياد العبدالله، عبدالله أمين حلاق، «دروز سوريّة»، موقع الجمهوريّة، (2017)، https://www.aljumhuriya.net/ar/36883



تجسيد «جامعة سوريّة» على الرغم من تبلورها في الخطاب. وجعل من السوريين في صراع مستمر على المكانة والكرامة في ما بينهم بوصفهم سوريين من جانب، ومع الآخرين بوصفهم مستعمرين ومتآمرين من جانب آخر.

ثار الموحدون الدروز بقيادة سلطان الأطرش على الانتداب الفرنسي لاعتدائه على خصوصيّتهم. وأكدوا الاستقلال التام لسوريّة. وأقام وجهاء الجبل علاقات تجاريّة مع تجار من العائلات الدمشقيّة الحديثة في الميدان التي لم تخدم بيروقراطيًا في الدولة العثمانيّة مثل آل المهايني وآل السكّر (سنّة) وآل عفلق وآل الشويري (مسيحيّة). ولكنهم لم ينسجوا علاقات تجاريّة مع العائلات البارزة لأنّ تلك العائلات استشعرت الخطر الذي يتنامى عند وجهاء الموحدين الدروز. وعلى الرغم من فشل الثورة السورية في نهاية الأمر، فإنها أثرت بشكل دائم في جذب المناطق المتباينة بعضها إلى بعض، وكسرت بعض الحواجز بين الريف والمدينة. وتنامت فكرة الأمة العربية السورية، "إذ سمحت للسوريين بتخيل أنفسهم كأمة واحدة". وكريفيّون قام تجار دمشق الجدد بدعمهم لتعميم الثورة وتحرير البلاد ولم تكن ثورتهم طائفيّة كما أدّعت فرنسا وكتّاب السياق الاستعماري؛ لأنها ربطت بين المطالب الوطنيّة وبين الخصوصيّة المناطقيّة ولكنها فشلت في اختراق دمشق ثوريًا كما فشلت دمشق في اختراق السويداء تجاريًّا. وعلى الرغم من هذا ثمة تحالفًا مسكوتًا عنه بين السنّة وبين الموحدين الدروز. ومن هنا نثبت أنّ ولاءهم معطى تاريخي غير ثابت. على الرغم من أنّ الثورة كانت ريفيّة إلّا أنّها ساهمت في تأسيس الجماعة السوريّة المُتخيّلة بعكس سياسة الأعيان ومصالحها الضيقة في التحالف مع الاستعمار حسب مايكل برفنس[49].

وفي خضم الصراعات مع الآخرين تم التشكيك بعروبة الموحدين الدروز وبوطنيتهم وإسلامهم. ولكن العروبة والإسلام رافقت الموحدين الدروز ولا خلاف عليهما، وإنما الخلاف على تفردهما بخصوصيّتهم في بوتقة الوطنيّة والعروبة والإسلام.

بعد الاستقلال لم تتناسب حصتهم مع حجم تضحياتهم ومنزلتهم وقيادتهم للثورة. اختلفوا مع شكري القوتلي عام 1947 على قوله "الدروز خطيرون" ومحاولاته تعديل الدستور حتى يمدد زمن رئاسته وعلى الانتخابات التي ألغيت. وبما أنّ الأمراء وزعماء العائلات والباشوات والباكوات من ممثلي طائفة الموحدين الدروز سياسيًّا، كانوا يختلفون في ما بينهم في القضايا المصيرية كالحرب العالميّة الأولى والثانية والاستعمار و الاستقلال... فقد تصدوا لظلم عائلة الأطرش واحتكارها للمناصب، وحرّض القوتلي على أحداث "الشعبيّة والطرشان" 1947. وهي اشتباكات مسلحة بزعامة حسين الشوفي وحمزة درويش وصالح عزيز ضد آل الأطرش طلبًا للمنزلة والنفوذ اللذين يقوضان احتكار العائلة الطرشانيّة. وقد جرت في ست قرى للجم نفوذ آل الأطرش، نتيجة علاقتهم الجيدة مع الأسرة الهاشمية، ودعمهم لمشروع الهلال الخصيب. وعلى الرغم من وجود فرق من الجيش بقيادة وزير الدفاع، أحمد الشراباتي، إلا أنه لم يتدخل بناءً على أوامر القوتلي، حتى يظهر انكفاء آل الأطرش مقابل الشعبيين، فإذا انكفؤوا احتلّ الشرباتي الجبل وطرد آل الأطرش منه؛ غير أنه مع تقدّم آل الأطرش على الشعبيين، سحب الشرباتي قواته من الجبل تاركًا الدروز لكي يعقدوا الصلح فيما بينهم. وساعدت هذه «المكيدة بين الدروز»، على إنجاح انقلاب حسني الزعيم الذي أطاح بالقوتلي[50].

وعلى الرغم من مشاركة بعض الضباط المحسوبين على السويداء، مثل فضل الله أبو منصور وأمين أبو

(49) نيروز ساتيك، «الثورة السوريّة الوطنيّة وتنامي الشعور القومي»، عمران، العدد 2/6، (2013)، ص191 وما بعدها.

(50) سِل، ص179-180.



عساف وحمد الأطرش وشوكت شقير رئيس أركان الجيش (من موحدي لبنان) في الانقلابات الأربعة (انقلاب الزعيم والحناوي والشيشكلي والانقلاب على الشيشكلي)، إلّا أنّ هذا لم يعفِ السويداء من هجوم الشيشكلي عليها لتنحسر مكانتها الاستراتيجيّة[51]. وبذلك ازدادت منزلة الأفراد بوصفهم مواطنين على حساب الجماعة. فبدأ ولاؤهم ينزاح تجاه الدولة السوريّة كما بدأت سيرورة تحوّلهم إلى مواطنين يعترفون باحتكار الدولة للعنف، فيدفعون الضرائب، ويخدمون في الجيش، ويسلمون السلاح، ويُقاضون أمام المحاكم السوريّة باستثناء المحكمة المذهبيّة المختصة بالأحوال الشخصيّة من مثل قضايا الزواج والطلاق والميراث.

تجدر الإشارة إلى أنّ المشكلة التاريخيّة التي واجهتها هذه الجماعة والمتجسدة في دفع الضريبة وخدمة الجيش وتسليم السلاح، لم تعد مشكلة مع الحكومات السوريّة. ومن هنا نقول إنّهم شدّدوا على خصوصيتهم المذهبيّة، ولم يسعوا إلى الانفصال.

ومع الوحدة شعروا بالفخر القومي بوصفهم عربًا. وشاركوا بفعاليّة بعد الانفصال، ولا سيّما مع «ثورة آذار» والانقلابات حتى السبعينيات. فشاركوا بحضور قوي في حزب البعث وفي الانقلابات التي حصلت في سوريّة عبر ضباط مثل سليم حاطوم وفهد الشاعر وعبد الكريم زهرالدين وحمد عبيد، وسياسيين مثل منصور الأطرش وحمود الشوفي وشبلي العيسمي.

اتسم تعاطي السلطات المختلفة والمتعاقب بمدِّ الجسور مع أطراف من المجتمع المحلي من المفترض أنْ تضمن تحريك الطرف الآخر كلما انفجر الوضع أو إسكاته. فاستمالت مشايخ العقل وزعماء العائلات من أمراء وباشوات وباكوات، لضبط الموحدين الدروز ولجم إيقاع المتنورين من الشباب والشابات. وهذا ما يفسر مثلًا إلقاء «الِحرْم"[52] الديني على سلطان الأطرش لأنّه تمرد على الفرنسيين سنة 1922م[53]. أو إلقاء مشايخ العقل (أبناؤهم) الحرم على وحيد البلعوس أيضًا عام 2014م، إذ توسط له الشيخ ركان الأطرش من خلوته ليتراجعوا عن حرمهم. ليعود الشيخ ركان نفسه ويطلب من أهالي السويداء السكوت، وهم في حال غليان تكاد تسقط النظام في السويداء في إثر اغتيال البلعوس وتفجير المستشفى الوطني قائلًا: «حرام وغضب الله على اللي بيطلع من بيتو" في 2015/9/4.

في الثلث الأخير من القرن العشرين انحسرت منزلتهم الاستراتيجيّة نهائيًا بعد حركة 23 شباط 1966 في إثر اعتقال سليم حاطوم لصلاح جديد وتهديد حافظ الأسد وزير الدفاع آنذاك للسويداء بالقصف في حال لم يُسَلَّم. ثم سُلِّم ولجأ سليم حاطوم إلى الأردن ليعدم بعد عودته للمشاركة في حرب1967. ومع "الحركة التصحيحية" بدأ تراجع دور العقيدة والقربى في ولاء الموحدين الدروز. واقتصر أمرُ القربى على صناديق العائلة وبعض الحساسيّات والمحسوبيّات، وأمرُ مشايخ العقل على التمجيد بحافظ الأسد. واستمر الوضع حتى قيام الثورة السورية 2011 ليعود دور العقيدة والقربة إلى الظهور مجددًا.

حصل الموحدون الدروز في هذه السيرورة على حقوق ثقافيّة في المعتقد ومال الوقف وإقامة الشعائر المذهيّة،

(51) سِل، ص179. «أصبح الجبل جزءًا من سوريّة عام 1945 فاقدًا ما يشبه الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به إبان الانتداب».

(52) يشبه الحرم الكنسي اليهودي والمسيحي؛ ويُحرّمْ فيه تزويج من وقع عليه الحرم وإلقاء التحية عليه ودخوله إلى المجالس والمضافات وحتى إطعامه أو الأكل من عنده...

(53) أبي راشد، ص151.



والفلكلور، والميراث، والزواج والطلاق، ولكن ظلت المشكلة كامنة في الحقوق السياسيّة والاقتصاديّة؛ وهذا معناه غياب تقاسم السلطة والثروة في سوريّة. وفي حين اكتفوا بهذه الخصوصيّة في تلك المرحلة إلّا أنهم أحسوا أنها تحصيل حاصل في هذه المرحلة، وأنه جاء الدور لمقاسمة السلطة والثروة. فالتحالفات القديمة بين الموحدين الدروز والسنّة باتت لا تعطي المنزلة المستحقة لهم، وباتوا يشعرون بالغبن قياسًا بتضحياتهم وولائهم وحيادهم.

في الثورة السوريّة، ثورة الحريّة والكرامة، وقف موحدو السويداء على الحياد الإيجابي؛ فامتنعوا عن الخدمة في الجيش وأصروا على الخدمة داخل حدود المحافظة لحماية الأهل، واستقبلوا النازحين السنة بأعداد كبيرة بسبب هول الحرب من درعا والغوطة وحمص. ولكن هذا لم يكن موقف موحدي حضر وجرمانا. والجدير بالملاحظة هنا هو الامتناع عن خدمة الجيش لصالح السوريين لا لمصلحة الجماعة كما عودونا طوال مدة وجودهم في السويداء.

طوال خمسين عامًا تحت حكم الأسدين تراجعت البنى التقليديّة من مشيخة وزعامة، بدليل أن بعض الأمراء ومشايخ العقل قبل توريثهم المشيخة كانوا يعيشون على الاغتراب مثلًا. وأبناؤهم وبناتهم يعيشون على التعليم وكفاءاتهم وما توفره لهم محسوبيات السلطة والحزب من تعامل. ومع الفوضى التي أحدثها النظام وحلفاؤه الإرهابيون إضافة إلى تلك التي أحدثها أصدقاء الشعب السوري، عادت تلك الزعمات والمشايخ للعب الدور التقليدي وإحياء الرابط التقليدي ورفع العلم التقليدي.

وخلاصة الكلام: إنّ دور ولائهم الجماعاتي كان مسهمًا في نمو الوطنيّة السوريّة والقوميّة العربيّة، وليس معرقلًا لهما.

رابعًا: بعض نتائج البحث

يتبين لنا أنّ عقيدة التوحيد شكّلت ربطًا جامعًا بين الموحدين الدروز، إذ جعلت من ولائهم للجماعة مقدسًا. وأن علاقات القربى صبّت في الولاء نفسه. ومثال ذلك؛ ما يترتب على التقمص من مساواة بين الموحدين أنفسهم في مجال «الخلقة والفرقة» كونها تفرض الاحترام والنديّة؛ ومن أخوّة تدعوهم إلى التعاون والتكافل مع بعضهم والمحافظة على بعضهم أمام الأخطار؛ ومن التنقل في الأوطان مما يزيد من روح الأخوّة والولاء للوطن الذي يعيشون فيه؛ ومن عدم مهابة الموت لأنّه مجرد معبر من حياة إلى أخرى يجعل التضحية بالنفس في سبيل الجماعة سهلًا(54).

ولكن هناك عوامل أخرى تسهم في تقديم الولاء للجماعة منها:

1. تراجع حضور الدولة. كما حصل في بدايات القرن العشرين؛ لأنّ الدولة كانت ناشئة وقتئذ، أمّا في العقد الثاني من القرن الوحد والعشرين فالدولة كانت فاشلة.
2. في ظل الحرب في سوريّة وعليها يزداد ولاء الأعضاء إلى جماعتهم والاحتماء بها والسعي لحمايتها؛ ولذلك اضطر الموحدون الدروز المنتشرون في الأراضي السوريّة إلى ترك بيوتهم والاحتماء بطائفتهم وقرابتهم في السويداء، واضطر بعضهم إلى القتال للدفاع عنها ضد

(54) ابن سيرين، ص408.



داعش والنصرة.

3. السياق الدوليّ المناسب؛ مثلما حصل إبّان تقاسم بلاد الشام بين إنكلترا وفرنسا وفرض انتدابهما. فالانتداب تعامل مع الجماعات ذات الرابط العقائدي بوصفهم نتفًا منعزلة لا يجمعهم بالجماعات الأخرى رابط عام. أو كما هو حاصل اليوم في سياق انعدام القطبيّة الدوليّة واستراتيجيّة التدخل الدوليّ والفوضى الخلّاقة، لما يجلبه هذا السياق من تقوقع الجماعة على نفسها وضمن حدودها.

4. توظيف السلطات لمثل هذه الجماعات الضديّة تحت كذبة حماية الأقليّات لكي تقوم هذه الجماعات بالدفاع عن تلك السلطات على اختلاف مشاربها، ولإحداث الانقسامات في قلب الجماعة الواحدة أو بين الجماعات المختلفة. وهذا ما يفسر موقف الحياد الإيجابي الذي اتخذه الموحدون الدروز عمومًا تجاه ثورة الحريّة والكرامة بدعوى «لن نشارك في قتل السوريين» ورفض توظيف السلطة لهم.

5. الدعم المعنوي والمادي المقدم من أعضاء الجماعة في لبنان وفلسطين والأردن -ولا سيّما إنْ كان مرفقًا بمباركة حكومات هذه الدول نفسها، أو من تحت الطاولة، بمباركة إيران وحزب الله وإسرائيل- قد قوى الحالة الجماعاتية على حساب الحالة الفرديّة.

أمّا عن العوامل التي تساعد جماعة الموحدين الدروز في نمو ولائها للعروبة أو للوطنيّة السوريّة فتتعين في السياق الدوليّ والإقليميّ المشجع على الانفتاح مثلما حصل عندما لاقت هذه الجماعة الثورة العربيّة أو الثورة السوريّة الكبرى، ولكن بخصوصيّة جماعاتيّة بارزة.

وهكذا يتحول الرابط الأنثربولوجي الذي يربط أعضاء الجماعة ببعضهم إلى رأسمال عقيدي وعائلي ليتم توظيفه في حماية الجماعة السياسيّة وانغلاقها على نفسها أو في انفتاحها على السوريين والعرب. أو من الجهة المعاكسة ليتوظف ضد الجماعة من قبل النظام الذي يعتمد على ردة فعلهم. فعلى الرغم من وجود إقليم وأعضاء للجماعة السياسيّة في سوريّة، فإنّ ولاء هذه الجماعة في العموم كان للوطنيّة السوريّة؛ لعدم وجود آليّة عندهم لِلم الضرائب من أعضائها، ولعدم وجود آليّة لقمع هؤلاء الأعضاء. وبذلك ظلت جباية الضرائب وآليّة القمع والقضاء واحتكار العنف بيد الدولة السوريّة. ومن الصعب أنْ نلمح أي تعارض بين العقيدة التوحيديّة والوحدة الوطنيّة. وعلى العموم كانت الطروحات الوطنيّة ترشد مواقف الموحدين الدروز، والطروحات القوميّة في درجة أقل ومن ثم المواقف الطائفيّة في المرتبة الأخيرة. وعلى الرغم من دفاعهم بشراسة عن وجودهم فإنّهم لا يلجئون إلى العمليّات الانتحاريّة ولا يعتدون على المدنيين والنساء والأطفال؛ وبكلام آخر لم يتحولوا إلى إرهابيين.

خامسًا: خاتمة تتضمن اقتراح «المواطنة الانتقاليّة»

لتشابه الولاء الجماعتي للموحدين الدروز في سوريّة مع الولاء الجماعاتي لمختلف الطوائف والإثنيات، ولصهره في وطنيّة سوريّة، وتحويله إلى ولاءٍ فرديّ، أقترح «المواطنة الانتقاليّة" لتضمينها في الوطنيّة السوريّة. وفي هذا السياق حدّد يوسف سلامة إنجاز الثورة السوريّة 2011 بكشفها عقم الفكرة الجامعة التي جمعنا النظام تحتها. يقول: "إن الإنجاز الأهم في الثورة السورية يبقى متمثلًا في كشفها أن (الفكرة الجامعة) التي فرضها



النظام على الشعب السوري بالحديد والنار -ما يقرب نصف قرن- قد أصبحت فكرة ميتة، ويتعذر على أي عاقل أن يدعو إلى أن تحكم سورية والسوريين بها من جديد». ودافع عن استحداث فكرة جامعة بديلة تكون بمثابة الرابط الجديد الذي يجذب مختلف الولاءات إليه وسمّاه «الجامعة السوريّة» أسوة بالجامعة العربيّة أو الإسلاميّة أو البروليتاريّة. ولا بدّ لهذا الرابط من أنْ يكون على مسافة متساوية من الأفراد ومن الجماعات والإثنيات والطوائف[55]. وفي سياق استحداث فكرة جامعة أطلق مجموعة ناشطين سوريين «إعلان الوطنية السوريّة»[56] ودعوا إلى التوقيع عليه.

ولأنّ الفجوة كبيرة بين الولاء الجماعاتي والولاء الفردي، ولردم هذه الفجوة أقترح مفهوم "المواطنة الانتقاليّة" لجعل الوطنيّة السوريّة (الجامعة السوريّة) محايدة تجاه جماعاتها. وهو مفهوم يستمد مشروعيته من الواقع السوريّ لتراجع رابط الوطنيّة السوريّة الجامعة أمام روابط العقائد الروحيّة والقربى، ولطغيان الجماعاتيّة على الفرديّة.

المواطنة الانتقاليّة إذًا، مفهومٌ إجرائيّ، أوظفه في ربط الفكر السياسيّ بواقع الجماعات السوريّة؛ للمزاوجة بين الجماعاتيّة وبين الفرديّة. وأعني به أنْ تأخذ الوطنيّة السوريّة –لأنها القاسم المشترك الأكبر بين مختلف الجماعات السياسيّة- مسافة واحدة من مختلف تلك الجماعات السياسيّة، بعد أنْ يكون رابطها متوافقًا مع حقوق الإنسان والقيم العالميّة، لكيلا نقع في عنصريّة وطنيّة من جديد. وهو تساوي الأفراد والجماعات، أمام رابط وطني جامع، ولكن بالتدريج وبشكلٍ انتقالي يخفف من وضعيّة التفاوت الهائل بين الأفراد وبين الجماعات نفسها، وينتهي في حال تحققت المواطنة الفرديّة. ومن هنا تنبع حيوية مفهوم المواطنة الانتقاليّة في ردم الفجوة بين حلمنا بالدولة الوطنية الديمقراطية وبين واقعنا الجماعاتي الاستبداديّ، بين مشروعنا في المواطنة والاندماج وبين نتائجنا في التقاتل والانغلاق. كما تنبع أهميته من المزاوجة بين حقوق الأفراد المتساوية وحقوق الجماعات المتساوية. فحتى لو حصّل الفرد حقوقه المتساوية مع غيره من الأفراد في المواطنة، فإنّ ولاءه يبقى لجماعته الطائفيّة وليس للمواطنة، كما يبقى شعوره بمظلوميّة جماعته متأججًا.

تاريخيًّا، لا تعترف المواطنة بحقوق الجماعات السياسيّة، وتكتفي بالاعتراف بحقوق الأفراد وحقوق الإنسان وحقوق الأقليّات في دولة قوميّة. ولكن سوريّة فشلت في تعيّين «الجامعة العربيّة والجامعة الإسلاميّة والجامعة البروليتاريّة"[57] ومن واجبها الآن تعيين الجامعة السوريّة (الدولة الوطنيّة) على أساس الجنسيّة السوريّة، وليس على الهويات القوميّة والأمميّة والطائفيّة. ويضاف إلى هذا أنّ الأفراد والإنسان والأقليّات في سوريّة تندرج في جماعاتها السياسيّة تلك التي ترتبط أساسًا بحدودها الجغرافيّة الخاصة بها وبسيادتها على أعضائها وإقليمها. فكلما تكلمت مع فرد في سوريّة ستأخذ بالحسبان طائفته وقوميّته. ففي سورية الآن، يرتبط الفرد بروابط عدة، منها الرابط الطائفي والرابط الوطني والرابط القومي. ولكن الرابط الطاغي اليوم هو الرابط الطائفي. وهذا يطرح علينا مشكلة ولاء الأفراد والجماعات؛ لأنّ تعدد الولاءات وتراكبها يعيق الانتقال الديمقراطي إلى رابط وطنيّ وإلى ولاء له.

(55) يوسف سلامة، «الجامعة السوريّة ورقة مبادئ»، تلفزيون سوريا، (2019)، https://cutt.us/ayW3J

(56)https://www.facebook.com/SyrianNationalDeclaration/?ref=nf&hc_ref=ARRV_6P6zkWnHvRWTLQ8TqQNKrxAnJVanJ0IA7N1UOD0_hOD5urlJZlBZaFRMgcHO58

(57) سلامة، «الجامعة السوريّة ورقة مبادئ»، مرجع سابق.



ومن جملة ما تتصف به هذه الجماعات الأنثربولوجيّة سأركز على صفتين منها:

الصفة الأولى: لكلّ جماعة من هذه الجماعات رابط وأعضاء وولاء وحدود وسيادة، يختلف عن الجماعات الأخرى ويتعارض مع رابط يجمعها في دولة وطنيّة واحدة؛ وذلك لغياب حقوقهم السياسيّة والمدنيّة من جهة، ولتراجع رابط الوطنيّة السوريّة من جهة أخرى.

أمّا الصفة الثانية؛ فجميع هذه الجماعات تتداخل بروابطها وأعضائها وولائها وحدودها وسيادتها مع رابط الوطنيّة السوريّة فحسب، والذي يُفترض أنْ يكون عقدة الوصل بين هذه الجماعات وأنْ يضعها على مسافة واحدة منه في الحقوق السياسية والحقوق المدنية وليس في الحقوق الثقافيّة فحسب. إذ أنّ التساوي بين الجماعات السياسيّة في الحقوق الثقافية من مثل اللغة والفلكلور والدين والعادات واللباس لم يعد كافيًا؛ لأن توزيع السلطة وتوزيع الثروة هو الهدف المشترك لهذه الجماعات السياسية. ولا تعني مواطنة الجماعات السياسيّة الانتقاليّة هذه محاصصة طائفيّة أبدًا، وإنما تعني الأخذ بالحسبان دور هذه الجماعات في تقويض أي رابط وطني جامع، وفي فسح المجال لاتفاق الجماعات السياسيّة على مستقبل سوريّة بعقد وطنيّ.

فالمواطنة الانتقاليّة بهذا المعنى تعيّنٌ للوطنيّة السوريّة بالمعنى الجماعاتي والفردي في آنٍ. وفي واقع الحال، ينوس السوريّون بين حدين: الأول هو حد الانتماء بالولادة كعضو ضمن جماعة سياسيّة والولاء لحالات محليّة. بينما الثاني حد الانتماء بالاختيار كفرد ضمن مجتمع والولاء لمبادئ وطنيّة وعالميّة. ومثل هذه المزاوجة تسمح بنمو الوطنيّة السوريّة وتحِدّ من تغول إحدى جماعاتها على الجماعات الأخرى. أو تغول الفرد على الجماعات جميعها.

في الحقيقة، سورية الآن جماعات لا مجتمع، ولاءات لا ولاء واحد، روابط لا رابط معقول طاغٍ. يخطئ التوصيف من يرى سورية دولة فيها شعب يضم مواطنين، ويحكمهم دستور يسترشد برابط وطني وولاء لهذا الرابط. ويخطئ التوصيف أيضًا من يرى سورية مجتمعًا فيه مكونات اجتماعية متنوعة تضم أفرادًا متمايزين، ويربطهم رابط واحد وولاء واحد. ومن يخطئ التوصيف يخطئ العمل ويخطئ الحلول. إن رابطي الطائفة والقربى يشكّلان نماذج الصراع والتفكك والتماسك والتحالف والعداوة في سوريّة الآن. فالحرب في سوريّة وعليها لم تكن بين طبقات غنيّة وفقيرة أو جماعات اقتصادية، وإنما بين جماعات سياسية بروابط وولاءات مختلفة. إنّ الاختلافات ليست اقتصادية ولا إيديولوجية ولا ثقافية إنها جماعاتيّة/سياسية على السلطة والثروة.

ينظر بعضهم إلى السوريين بوصفهم أفرادًا لهم خياراتهم. ويضع الحلول في الديمقراطيّة والمواطنة والوطنيّة. ولكنهم يسكتوا عن الرابط بين هؤلاء الأفراد وبين طوائفهم وقوميّاتهم ودينهم. ومع أنّ الفكر السياسي قدم حلولًا لهذه الظاهرة مثل التقسيم والدولة القومية والدولة الوطنية والمحاصصة الطائفية وتسيس الطوائف وتطييف السياسة، إلا أن تجربة العراق ولبنان لم ترضِ السوريين أبدًا في هذا السياق. ولذلك أقترح أن نزاوج بين الولاء الفردي والولاء الطائفي والولاء القومي من خلال المواطنة الانتقالية. فكلّ السوريين أبناء وبنات طوائف، ولكن ليس كلّهم طائفيين، وليس كلّ الطوائف طائفيّة. علّنا نجمع برابطٍ وطنيّ بين الرابط ما فوق الوطني كالقوميّ والإسلاميّ، والرابط ما تحت الوطني كالرابط الطائفيّ. فإذا كانت المواطنة فردية فإن المواطنة الانتقالية جماعاتيّة.

في سورية اليوم تُشكِّل الطائفية عاملًا حاسمًا موحِدًا كان أو مفتِتًا. صحيح أن السورين أفراد في المجتمع



السوريّ، ولكن صحيح أيضًا أن السوريين أعضاء في طوائفهم فضلًا على ذلك. يُعرِّف كثير من السوريين أنفسهم بطوائفهم. ويتصف السوريون الآن بصفتين اثنتين:

الأولى هي كونهم أعضاء في جماعة طائفية. أما الثانية فهي كونهم أفرادًا في مجتمع. ولكن المطلوب هو أن يكونوا مواطنون في دولة.

وأخيرًا أقصد بالمواطنة الانتقاليّة المساواة في حقوق هذه الجماعات السياسيّة بالسلطة والثروة؛ بحيث تكون الجماعات السياسيّة جميعها على مسافة واحدة من رابط الوطنيّة السوريّة بوصفه رابطًا أقلّ من قومي وإسلامي وأوسع من طائفي. فالمواطنة هي حقوق متساوية للأفراد السوريين بينما المواطنة الانتقاليّة هي حقوق متساوية للجماعات السياسيّة.

المصادر والمراجع

1. ابن سيرين. حامد، مصادر العقيدة الدرزيّة، ط1(ديار عقل/ لبنان: دار لأجل المعرفة، 1985).
2. أبو منصور. فضل الله، أعاصير دمشق، كتاب إلكتروني (د.م، د.ن، د.ت).
3. أبي راشد. حنا، جبل الدروز، ط1، (القاهرة: مكتبة زيدان العموميّة، 1925).
4. العيسمي. شبلي، نمر. داوود، الشوفي. حمود، محافظة السويداء، عارف النكدي (مراجعًا)، ط1، (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1962).
5. الأنطاكي. يحيى بن سعيد بن يحيى، تاريخ الأنطاكي: المعروف بصلة تاريخ أورتيخا، عمر عبد السلام تدمري (محققًا)، ط1، (طرابلس/ لبنان: جروس برس، 1990).
6. النقيب. خلدون حسن، الدولة التسلطيّة في المشرق العربي، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1991).
7. أندرسون. بِنِدِكْت، الجماعات المُتخيّلة: تأملات في أصل القوميّة وانتشارها، ثائر ديب (مترجمًا)، عزمي بشارة (مقدمًا)، ط1، (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2009).
8. بدوي. عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، ط1، (بيروت: دار اعلم لملايين، 1971).
9. برفنس. مايكل، الثورة السوريّة الوطنيّة وتنامي الشعور القومي، وسام دودار (مترجمًا)، ط1(بيروت: دار قدمس، 2013).
10. سِل. باترِك، الصراع على سوريّة: دراسة للسياسة العربيّة بعد الحرب 1945-1958، سمير عبده ومحمد فلاحة (مترجمان)، ط1، (دمشق: دار طلاس، 1986).
11. عثمان. بهيج، جحا. شفيق، بعلبكي. منير، المصور في التاريخ: قلاع فخر الدين، ط6، (بيروت: دار العلم للملايين، 1999).